

مدرسة الإمام الصادق وأثره في بناء الوحدة الإسلامية



جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام المعروف بالإمام الصادق عليه السلام . ولد عليه السلام في المدينة المنورة في السابع عشر من شهر ربيع الاول سنة ثلاث وثمانين من الهجرة ، وترعرع الصادق في طلال جده الامام السجاد عليه السلام وابيه الامام الباقر عليه السلام وعنه اخذ علوم الشريعة ومعارف الاسلام . أمّهُ أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر. واستشهد في المدينة المنورة سنة 148 للهجرة عن عمر يناهز الـ 65 عاماً وكانت إمامته 34 عاماً ، ودفن في البقيع إلى جانب أبيه الإمام الباقر وجده الإمام السجاد وعمّه الإمام الحسن عليهم السلام.

يكنى بأبي عبد الله واليه ينسب المذهب الجعفري.

عاصر خلال فترة إمامته ثمانية من ملوك بني أمية واثنين من ملوك بني العباس، حيث عاصر بقية ملك هشام بن عبد الملك وملك الوليد بن يزيد بن عبد الملك وملك يزيد بن الوليد بن عبد الملك الملقب بالناقص وملك إبراهيم بن الوليد وملك مروان بن محمد الحمار ثم صارت المسودة من أهل خراسان مع أبي مسلم سنة اثنتين وثلاثين ومائة فملك أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس الملقب

بالسباح أربع سنين وثمانية أشهر. ثم ملك أخوه أبو جعفر عبد الله الملقب بالمنصور إحدى وعشرين سنة وأحد عشر شهرا.

تزامن عصر الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، مع ضعف وزوال حكم بني مروان، فكما تهيأت الأجواء للحريات السياسية والثورات الدينية، كذلك الحال بالنسبة لحرية البحث والمناظرات العلمية و نشر المعارف في مختلف الأقسام. وتمكن الإمام عليه السلام من خلال هذه الظروف وعلمه الوفير والهداية الربانية الخاصة من نشر العلوم الاسلامية ممارسة دوره في التصدي للأفكار التشكيكية التي طرحت نفسها على الساحة والتي وصلت الى المسلمين نتيجة ترجمة الكتب اليونانية التي بدأت في عهد الإمام جعفر الصادق عليه السلام.

الإمام الصادق هو صاحب مدرسة عظيمة ، مدت جذورها عمق التاريخ وبقيت مباركة طيبة، أصلها راسخ في الأرض وفروعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها. وصاحب هذه المدرسة وحده موسوعة علمية، تقف وراء طاقاته التكوينية المتينة أسباب جليلة ساهمت جميعها في شحن المعارف الواسعة إلى فكره المركز، وإرادته المعتمدة بالمران الأصيل. وكانت تلك المعارف والطاقات المباركة كلها تصب في بوتقة واحدة هي بوتقة بناء مجتمع إسلامي صالح وفرد يعيش حرية الفكر وحرية الإنسانية وعبودية الباري عز وجل.

لقد ساعدت الأوضاع السياسية، بين شيخوخة الدولة الأموية وطفولة الدولة العباسية، الإمام الصادق إذ اتسع المجال له لنشر العلم بمختلف فروع وتوسيع الأفق الفكري لفقهاء المسلمين في علمي الكلام والحديث، وبسبب تلك الظروف أيضا اشتهر الإمام الصادق في ذلك العصر وانتشر ذكره وتوسعت مدرسته الفكرية التي كان يدرس فيها أربعة آلاف عالم، اشتهر عنها حرية القول وحرية النقض والإبرام في شأن الحقائق الدينية والعلوم الطبيعية.

فتلاميذ الإمام الصادق، لم يكونوا من مذهب معين بحد ذاته بل أغلب علماء الاسلام تتلمذوا على يديه، ويفتخرون بهذه التلمذة كما ينقل متواتراً عن الإمام أبي حنيفة قوله: لولا السنتان لهلك النعمان، لما كانت لهاتين السنتين الدراستين من أثر بالغ في حياته العلمية وإكتمال وعيه لشريعة السماء. وهذا إن دلَّ على شيء فإنما يدل على الروح الوجدانية التي كانت تعيش بين جناب الامام جعفر الصادق(ع) وتربيته لطلابه على أساس العلم والتقوى والحياة من أجل الاسلام ومصالح المسلمين.

وكان دور الحوار في مدرسة الإمام الصادق عليه السلام، له الاثر الاكبر في بناء الوحدة الإسلامية. إن إيمان وإلتزام الإمام الصادق بالحوار كان كبيرا لإيصال المفهوم الاسلامي الصحيح للآخرين أياً كانوا، ولذلك كان عليه السلام، يتحدث بطول نفس مع الزنادقة الذين لم يؤمنوا بالاسلام، ولا يغضب عندما يسأله

أحد الزنادقة "كيف يعبد الله الخلق ولم يروه؟"، ويجيبه الإمام "رأته القلوب بنور الإيمان وأثبتته العقول بيقظتها إثبات العيان، وأبصرته الأبصار بما رأته من حسن التركيب وإحكام التأليف، ثم الرسل وآياتها، والكتب ومحكماتها، واقتصر العلماء على ما رأوه من عظمتهم دون رؤيته".

أن الفكر الحوارى فى مدرسة الإمام الصادق لم يتوقف معه عليه السلام، بل سار الأئمة الباقون على نهجه فى ترسيخ العلم فى حياة المسلمين بالحوار والمناقشة العلمية الجادة بينهم وبين غيرهم حتى من أتباع الديانات الأخرى. لا يمكن أن تتحقق الوحدة بين المسلمين مع تعند كل جهة دون الاعتراف بسلام الآخر ما دام يشهد بالشهادتين ويلتزم بأحكام الإسلام، وهذا ما كان يراه الإمام جعفر الصادق عليه السلام، وكان يؤمن به ويعلم تلاميذه على أن كل من إتصف بتلك الصفات له ما للمسلمين وعليه ما عليهم ولا يجوز سبه ولعنه كما ورد عن جده الإمام علي ابن أبي طالب عليه السلام: (لا تكونوا سبابين ولا شتامين، وإنى أكره لكم أن تكونوا سبابين، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم وذكرتم حالهم كان أصوب فى القول وأبلغ فى العذر، وقتلتم مكان سبهم إياكم: اللهم إحقن دماءنا ودمائهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم، واهدهم من ضلالتهم حتى يعرف الحق من جهله ويرعوي عن الغي والعدوان من لهج به).

ويؤدب الإمام عليه السلام أتباعه، بالدعاء حتى لخصومهم وأعدائهم بأن يهديهم الى طريق الحق والصواب، لأن المؤمن الحقيقى هو من يكظم غيظه ولا يشفيه بالانتقام من عدوه، كما كان يقول رسول الله صلى الله عليه وآله: (اللهم إهد قومي فإنهم لا يعلمون)، هذا هو أدب وأخلاق رسول الله صلى الله عليه وآله والإمام جعفر الصادق عليه السلام، إمام المذاهب الإسلامية جميعاً. وورد فى كتاب حلية الأولياء عن عمرو بن المقدم بن معد يكرب انه قال: كنت إذا نظرت إلى جعفر بن محمد علمت أنه من سلاله النبيين.

بهذه الأخلاق الفاضلة المؤمنة بالحوار كأساس لبناء الصرح الإسلامى تمكن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، من تربية آلاف العلماء وما بقي إرثاً للمسلمين من خلفه كله من آثار ذلك الإيمان بالحوار والتسامح الذى إتصف بهما وعلاّمها لتلاميذه وأصحابه، وأوصى المسلمين بالالتزام بمبدأ الحوار البناء لا الحوار الهدام لوحدة المسلمين بزرع التفرقة بينهم.

فى الحقيقة ان وحدة المسلمين ضرورة شرعية وعقلية؛ وتتجلى الوحدة بوضوح فى وحدة الموقف العملى اما الوحدة فى الراى الفكرى والفقهى فهى امر بعيد ومثالى لا يتحقق فى ارض الواقع.